المشكلة الجزئية الأولى : في الإحساس و الإدراك

العنصر : علاقة الإحساس بالإدراك

السؤال : هل يمكن الفصل و التمييز بين الإحساس و الإدراك ؟

المقدمة : معروف عن الإنسان أنه كائن حيوي يمتلك مجموعة من الوظائف والقدرات التي تمكنه من الحفاظ على بقائه وإستمراره وتعينه على التكيف مع محيطه ومن هذه القدرات نجد قدرتي الإحساس و الإدراك فالأولى هي عملية فيزيولوجية بسيطة ناتجة عن تأثر إحدى حواس الإنسان بالمنبهات الخارجية بهدف التكيف مع العالم الخارجي بينما تعرف الثانية بأنها عملية عقلية عليا معقدة يتم فيها تفسير و تأويل و ترجمة المؤثرات الحسية التي تنقلها الحواس إلى المراكز العصبية و بهذا يتعرف الإنسان على ما يحيط به غير أن البحث في العلاقة بين الإحساس و الإدراك كان من بين المشكلات الفلسفية التي شغلت إهتمام العديد من المفكرين و الفلاسفة نتج بشأنها إختلاف في المواقف و تباين في التصورات إذ يعتقد البعض منهم بأنه يمكن الفصل بين الإحساس و الإدراك في التعرف على العالم الخارجي بينما يشكك آخرون في هذا الطرح و يذهبون إلى القول بأنه لا يمكن الفصل بين الإحساس و الإدراك في التعرف على العالم الخارجي و في ظل هذا الجدل القائم يثار التساؤل التالي : ما طبيعة العلاقة القائمة بين الإحساس والإدراك هل هي علاقة إنفصال أم علاقة إتصال؟

العرض (محاولة حل المشكلة) :

1 - عرض منطق الأطروحة : يرى علم النفس التقليدي بزعامة الإتجاهين العقلي و الحسي بأنه من الضروري الفصل و التمييز بين الإحساس و الإدراك في التعرف على العالم الخارجي

ويستند الفلاسفة العقليون في فصلهم بين الإحساس والإدراك على التمييز بينهما من حيث طبيعة وقيمة المعرفة المتأتية من كليهما فمن حيث الطبيعة إن الإحساس عملية فيزيولوجية أولية بسيطة مرتبطة بالبدن وهو عالم ثابت مشترك بين الإنسان والحيوان أما الإدراك فهو مرتبط بالعقل أي أنه عملية عقلية عليا معقدة تساهم فيه عمليات ووظائف عقلية عليا من ذاكرة وذكاء وتخيل وتأويل للحكم ... وهو متطور تبعا لتطور هذه القدرات الذهنية أما من حيث القيمة للإحساس أدنى قيمة معرفية من الإدراك بمعنى أنه معرفة أولية

لم يبلغ بعد درجة المعرفة فهو يحدث صورا ذهنية لا تتضمن أي معنى و بذلك يكون معرفة ظنية لا يقينية و هي أقل وضوحا وكمالا بل لا تتجاوز ما تتوفر عند الحيوانات بينما الإدراك يؤسس على المعرفة الحقة القائمة على الوضوح واليقين والتي تتم في إطار الزمان والمكان يقول ديكارت في هذا : ((أنا أدرك بمحض ما في ذهني من قوة الحكم ما كنت أحسب أني أراه بعيني))

حيث بين سقراط بأن الإحساس لا يقدم لنا معرفة بل كل ما يقدمه هي معطيات أولية بحاجة إلى تحليل من طرف العقل و أن المعرفة لا نستقيها من العالم الخارجي باستخدام الحواس بل هي موجودة في داخلنا و ندركها بعقلنا حيث يقول : ((اعرف نفسك بنفسك)) و نفس الفكرة نجها عند تلميذه أفلاطون الذي يبين من خلال أسطورة الكهف أن هناك عالمين عالم عقلي سماه بعالم المثل و عالم واقعي سماه بعالم الحس فالحقيقة بالنسبة إلى أفلاطون موجودة في العالم الأول و بعيدة عن العالم الثاني حيث يقول: ((المعرفة تذكر و الجهل نسيان))

أما رونيه ديكارت فيرى أن الإدراك عقلي و ليس حسي لأن الإحساس وحده لا يحقق معرفة مجردة فهو يظل أسير دائرة التجربة الحسية كما أنه كثيرا ما تكون المعرفة الحسية خاطئة أو غير كافية في ذاتها لأن الإقتصار على شهادة الحواس يؤدي إلى نتائج غير صحيحة بالإضافة أن الإحساس كثيرا ما يخدعنا حيث يقول : ((لقد رأيت الحواس تخدعني وليس من الحكمة أن نطمئن كل الاطمئنان إلى من يخدعنا ولو لمرة واحدة)) ولقد أشار ديكارت إلى هذا بتقديمه لمثال عن أبراج القلعة التي كانت تلوح له مستديرة عن بعد أصبحت تلوح له مربعة عن قرب و يقول في هذا الصدد : ((ولكن إختبارات كثيرة فوضت شيئا فشيئا كل ما لدي من ثقة بالحواس فقد لاحظت مرات عديدة أن الأبراج التي كانت تلوح لي مستديرة عن بعد تلوح لي مربعة عن قرب))

وفي هذا الإتجاه يرى ألان بأن المشاهدة الحسية لا تقدم معرفة كاملة وهذا ما بينه من خلال مثال المكعب الذي لا نرى منه إلا ثلاثة أوجه وتسعة أضلاع فقط بالعين المجردة بينما حقيقته هي ستة أوجه وإثني عشر ضلعا لأننا نعلم عن طريق الخبرة السابقة أننا لو أدرنا المكعب فسنرى الأوجه والأضلاع التي لا نراها لذلك فإدراك المكعب لا يخضع لمعطيات الحواس بل لنشاط الذهن وأحكامه ولولا هذا الحكم العقلي لا يمكننا الوصول إلى معرفة المكعب من مجرد الإحساس يقول ألان في هذا الصدد : ((إن الشيئ يعقل (يدرك) ولا يحس))

ويؤكد باركلي أن الأكمة (أي الأعمى بالولادة) الذي إستعاد بصره بعد عملية جراحية لا يستطيع أن يميز بين الموضوعات البعيدة والقريبة ويقول في هذا الصدد : ((عندما يعاد البصر إلى الأعمى بالولادة فلن تكون لديه أية فكرة عن المسافات في البداية فالشمس والنجوم والأشياء البعيدة أو القريبة تبدو و كأنها ملتصقة بعينيه (لكنها موجودة في فكره) لأن المحاكمة العقلية هي التي تبين لنا مواقع الأشياء المدركة بالبصر وهي ناتجة عن الخبرة والتجربة)) و بعد 20 سنة أكدت أعمال الجراح الإنجليزي شزلندن هذا الرأي وحالة الأكمة تماثل حالة الصبي في مرحلة اللاتمايز فلا يميز بين يديه والعالم الخارجي ويمد يديه لتناول الأشياء البعيدة لأنه يخطئ أيضا في تقدير المسافات لإنعدام الخبرة السابقة لديه يقول ألان في هذا الصدد : ((إن الصياد يدرك جيدا إذا عرف كيف يتعرف على كلابه التي يسمعها إنه يجيد الإدراك إذا عرف كيف يبلغ الحمامة التي تطير بينما الطفل لا يحسن الإدراك عندما يريد بلوغ القمر بيديه أو بلوغ غير ذلك))

أما كانط فيؤكد أن العين المجردة لا تنقل نتيجة الإحساس إلا بعدين من الأبعاد وهما الطول والعرض عند رؤية صورة أو منظر مثلا ورغم ذلك ندرك بعدا ثالثا وهو العمق إدراكا عقليا فالعمق كبعد ليس معطى حسي بل حكم عقلي وهنا يقول ألان :

((الرسامون يعرفون كيف يهيئون شروط إدراك المناظر))

هذا وتؤكد الملاحظة البسيطة والتجربة الخاصة أننا نحكم على الأشياء على حقيقتها وليس حسب ما تنقله لنا الحواس فندرك مثلا العصا في بركة ماء مستقيمة رغم أن الإحساس البصري ينقلها لنا منكسرة ويبدي لنا الإحساس الشمس وكأنها قرص صغير ونحكم عليها بالرغم من ذلك أنها أكبر من الأرض ولهذا يقول ديكارت في هذا الصدد : ((كل ما تلقيته حتى الآن على أنه أصدق الأشياء و أوثقها قد تعلمته عن طريق الحواس غير أنني إختبرت أحيانا هذه الحواس فوجدتها خادعة و أنه من الحذر أن لا نطمئن أبدا إلى من خدعونا ولو مرة))

بينما يميز الفلاسفة الحسيون بين الإحساس والإدراك بالنظر إلى درجة وشدة التعقيد فيهما فالصورة الحسية الواقعية أشد تأثيرا من الصورة العقلية الإدراكية باعتبار أن العقل البشري صفحة بيضاء يكتب عليها الواقع عن طريق الحواس حيث يؤكد السفسطائيون بزعامة بروتاغوراس بأن المعرفة نكتسبها من العالم الخارجي عن طريق الحواس و مادامت هذه الحواس مختلفة في مستواها فإن المعرفة هي كذلك مختلفة حيث يقول بروتاغوراس : ((الإنسان مقياس كل شيء))

كما يعتقد الرواقيون بزعامة زينون بأن مقياس المعرفة الحقة ليست تلك الأفكار الكلية التي كونها بأنفسنا بل التجربة الحسية التي استقينا منها هذه الأفكار فنفس الطفل حسب الرواقيين لا تشتمل على أي نوع من المعارف المسبقة أو الفطرية فهو يبدأ بتحصيلها بعديا بواسطة خبرته الحسية يقول جون لوك في هذا الصدد

: ((لو كان الناس يولدون وفي عقولهم أفكار فطرية لتساووا في المعرفة)) كما يعتبر لوك أيضا بأن الإحساس أساس كل معرفة وهذا ما يعكسه قوله الشهير : ((لو سألت الإنسان متى بدأ يعرف لأجابك متى بدأ يحس)) و يقر أيضا بأن كل ما في العقل هو ترجمة لكل ما في الواقع الخارجي حيث يقول في هذا الصدد : ((العقل مرآة تعكس صورة الواقع التي تقدمها الحواس)) فمن له مشكل في حواسه له مشكل في معارفه لهذا قيل : ((من فقد حسا فقد علما)) فالكفيف فاقد لفكرة الألوان و الأصم فاقد لفكرة الأصوات و لولا الحواس لما كانت هناك معرفة فلا وجود لإدراك عقلي بحت لأن الإدراك نفسه يعود إلى التجربة الحسية و هذا ما جعل هؤلاء يقولون : ((لا يوجد في العقل شيئ ما لم يوجد من قبل في التجربة)) و بذلك تكون الحواس هي وسيلة إتصال الفرد بالعالم الخارجي أما العقل وما ينطوي عليه فهو إنعكاس للمعطيات التجريدية يقول لوك في هذا : ((الحواس والمدركات هما النافذتان اللتان ينفذ منهما الضوء إلى الغرفة المظلمة العقل)) و نفس الفكرة نجدها عند دافيد هيوم الذي يرى أن الأفكار ما هي إلا إنطباعات حسية ففكرتي مثلا عن الآذان هي إحساسي بصوت الآذان حيث يقول : ((الفكرة ليست سوى مجرد نسخة من إنطباع حسي)) و حتى أن فرنسيس بيكون أوضح بأن العقل لو بقي لوحده لأنتج أوهاما و هذا في قوله : ((إن العقل لو بقي لوحده بمعزل عن الحواس لأنتج أوهاما)) هذا يعني أنه ليس هناك ما يسمى أفكار فطرية كلية و مجردة بل كل ما هناك حقائق مكتسبة من الواقع عن طريق الحس و بالتالي فالإحساس شيئ و الإدراك شيئ آخر

النقد : إذا كان الفصل بين الإحساس و الإدراك أمر ممكن من الناحية المنهجية و النظرية فهذا لا يعني بأنهما منفصلان تماما حيث ثبت على صعيد علم النفس خاصة أنه من الصعوبة إعتماد هذا التمييز على نحو واقعي بحكم أن الإدراك العقلي يعتمد في الأساس على ما تنقله الحواس لأن الإحساس هو الجسر الذي يعبره العقل أثناء إدراكه للموضوعات وهذا يعني أن للإحساس وظيفة يؤديها في عملية الإدراك وبدونه يصبح الإدراك فعلا ذهنيا مستحيلا وهذا ما أغفله العقليين أما الحسيين فقد بالغوا في جعل الإحساس الأساس الوحيد لكل معرفة إنسانية فالإدراك ليس مجرد تجميع للأحاسيس ولا يمكن إغفال أن المعرفة الحسية في مجملها ساذجة وتوقع في الخداع والخطأ

2 - عرض نقيض الأطروحة : وعلى خلاف الموقف يعتقد علم النفس الحديث الممثل في المدرسة الجشطالتية و المدرسة الظواهرية بأنه من الصعب الفصل و التمييز بين الإحساس والإدراك بإعتبار أن الإحساس يدخل في بناء الإدراك (لا إدراك بدون إحساس) و الإدراك يسبق الإحساس (لا إحساس بدون الإدراك) حيث يرى أنصار المدرسة الجشطالتية وفي مقدمتهم كوفكا وكوهلر وفيرتهيمر بأن المعرفة في الإدراك تابعة لإنتظام الأشياء في المكان فالأشياء التي ندركها تنتظم عناصرها في صورة كلية وتفرض نفسها على الذات فتحس بها وتدركها في آن واحد وفي نظرهم لا وجود لإحساس خالص ولا إدراك مجرد بل لدينا إدراك حسي فالإحساس والإدراك في نظر الفيلسوف الفرنسي بول غيوم يكون دفعة واحدة وهذا ما عبر عنه بقوله : ((ليس الإدراك تجميعا للإحساسات بل يتم دفعة واحدة)) وبذلك فإن الإدراك ليس إدراكا لمجموعة من الإحساسات المنظمة بواسطة العقل بل هو إدراك لمجموعة من العناصر المنظمة تنظيما موضوعيا لأن العالم الذي ندركه ليس عالما من الفوضى بل هو عالم منظم بفعل قوانين موضوعية تسمى بقوانين الإنتظام وهي التي تجعل الشخص يدرك الموضوع كصيغة أو شكل وإنتظام هذه البنية أو تفككها هو الذي يحدد نوع الإدراك بل أن تبدلها مع تبدل الظرف الخارجي يؤدي إلى تبدل الموقف منها وأهم هذه القوانين نجد قانون الشكل والأرضية فلكل شكل أو صورة في العالم الخارجي أرضية أو خلفية فكلما كان الشكل مخالفا للأرضية كان الإدراك أسهل ومثال ذلك إدراك نقطة سوداء في خلفية بيضاء يكون أسهل بكثير من إدراك نقطة سوداء في خلفية سوداء وهناك قانون التشابه فالموضوعات والأشياء المتشابهة في الشكل أو الحجم أو اللون تكون سهلة الإدراك لأنها تشكل في مجموعها كُلا موحدا مثال ذلك أنه يسهل علينا إدراك مجموعة من الجنود أو رجال الشرطة لتشابه الزي أكثر من مجموعة من الرجال في السوق أو الشارع وهناك قانون التقارب فالموضوعات والأشياء القريبة في الزمان والمكان تميل إلى التجمع بأذهاننا وتدرك بسهولة في وحدة أو في شكل واحد فمثلا النقاط المتقاربة من بعضها البعض تدرك كخط مستقيم وهناك قانون الإغلاق فكلما كانت الموضوعات و الأشياء ناقصة يميل الإنسان إلى ملء تلك الفجوات و إكمال ذلك النقص ونجد قانون البروز فكلما كانت الموضوعات والأشياء بارزة سهل إدراكها على خلاف الموضوعات غير البارزة التي يصعب إدراكها مثل إدراك سفينة على سطح البحر وهناك قانون الشمولية فالشكل المركب الذي يتألف من أشياء

أخرى يدرك كصيغة واحدة أما أجزاءه فلا تدرك إلا بعد التمعن فمثلا النجمة السداسية عندما نمعن النظر فيها ماهي في حقيقة الأمر إلا مثلثين متقاطعين وهناك قانون الوضوح والبساطة فكلما كانت الموضوعات و الأشياء بسيطة وواضحة يسهل إدراكها أما إذا كانت هذه الموضوعات والأشياء معقدة وغير واضحة صعب إدراكها ونجد أيضا قانون المصير المشترك مفاده أن الأشياء التي تقع في العالم الخارجي مرتبطة بشروط محددة إذا تمكن الإنسان من معرفتها إستطاع التنبؤ بها فكل شيئ يؤول إلى نتيجة معينة فمثلا ندرك أن الطفل إذا ما وضع يده على النار فسوف يحترق لذلك تجدنا نصرفه عنها متى رأيناه يتجه نحوها

فهذه القوانين هي التي تنظم الأشياء في بنية شاملة تجعلنا ندركها من الوهلة الأولى في صورة كلية فإذا شاهدنا الأمطار تسقط فنحن في هذه المشاهدة لا نجمع بذهننا الحركات الجزئية للقطرات الصغيرة التي تتألف منها الحركة الكلية بل أن الحركة الكلية هي التي تفرض نفسها علينا كذلك الشأن بالنسبة لسماع مقطوعة موسيقية فإننا ندركها كنغمة أساسية متماسكة وليس أن تسمع الآلات الوترية أولا ثم تعقبها الآلات النفخية ثانيا ثم تليها الآلات الإيقاعية ثالثا ... إلخ بل أنها كلها متداخلة في وحدة متميزة وعليه فالشخص يدرك الصيغة الكلية للشيء المدرك وبعد ذلك يأتي دور التفاصيل الجزئية التي لا بد لها أن تتكامل في هذا الكل والمقصود بالكل ليس مجموع العناصر التي يتألف منها بل خصائصه العامة و عليه فهذا الإدراك الكلي حسب الجشطالت ساهم فيه كل من الإحساس و العقل بحيث الأول دائما يكون مسبوقا بالثاني

أما المدرسة الظواهرية (الفينومينولوجية) بزعامة إدموند هوسرل و موريس ميرلوبونتي هي الأخرى تعتبر أن الإحساس الخالص خرافة و أنه مهما حاول علماء النفس إثباته على مستوى الحوادث المرضية في المستشفيات أو الحوادث السوية في المختبرات فإن جميع ملاحظاتهم تبقى عديمة الجدوى لهذا يقول ميرلوبونتي : ((الإحساس غير محسوس)) و أنه ليس ثمة ما يبرر الحديث عن إدراكات خالصة و مجردة فهي لا تحمل معرفة عن هذا العالم بل تمثل إنشاءات ذهنية و ترفا فكريا (وهما) و أن الإدراك يتعلق بالظواهر حيث يقول هوسرل : ((ما من شيء يمكن أن يبدو للإنسان غير الظواهر و نحن لا نعرف غير هذه الظواهر)) فالإدراك بالنسبة للظواهرية هو شعور الذات بالموضوع و هذا الشعور ما هو إلا عملية قصدية تعايش فيها الذات و الموضوع الخارجي

يقول ميرلوبونتي في هذا : ((إن الكيفية لا يقع الإحساس بها مباشرة أبدا فكل شعور إنما هو شعور بشيء ما)) و معنى ذلك كل شعور على حد تعبير ميرلوبونتي هو شعور بموضوع

كما أن هذه المدرسة تنتقد التفسير العقلي الذي يعتبر الإدراك حكما عقليا وتؤكد أن الإدراك حالة نفسية تابعة للشعور وتتغير بتغير أحواله إذ أن هوسرل يعتبر الإدراك متغيرا فيقول : ((أرى بلا انقطاع هذه الطاولة سوف اخرج وأغير مكاني ويبقى عندي بلا انقطاع شعور بالوجود الحسي لطاولة واحدة هي في ذاتها لم تتغير وأن إدراكي لها ما فتئ يتنوع إنه مجموعة من الإدراكات المتغيرة)) وهذا ما دفع الظواهريين إلى الاعتقاد أن الثابت هو الأشياء نفسها والمتغير هو الإدراك لهذا يجب الاكتفاء بوصف ما يظهر دون الاعتماد على فروض ونظريات ودون الفصل بين الإحساس والإدراك حيث لا وجود لإحساس خالص غير مسبوق بشعور ذهني كما لا يوجد إدراك ذهني غير مرتبط بالحواس وهذا ما يعزز فرضية استحالة الفصل بينهما

النقد : إذا كانت هناك صعوبة للتمييز بين الإحساس و الإدراك من الناحية العملية الواقعية فهذا لا يعني عدم وجود إحساس بحت (خالص) فإذا كان الإدراك البصري يتألف من عناصر حسية و أخرى ذهنية فإن الأمر ليس كذلك بالنسبة للمس و الشم و الذوق حيث يمكن الإحساس بكيفيات خالصة بالإضافة إلى أن هناك إدراكات خالصة

و عليه فإن النظريات الحديثة على الرغم من تنبهها للعلاقة الوطيدة بين الإحساس والإدراك إلا أنها بالغت في تفسير الإدراك من حيث أنها تغلب جانب على آخر فما يؤاخذ عليه الجشطالتيون هو أنهم مالوا إلى التركيز على الشروط الخارجية والعوامل الموضوعية الخارجية لعملية الإدراك وهو ما شكل إقصاء للعقل وقدراته الذاتية فجعلت دوره شكلي في العملية الإدراكية رغم أن الذهن ليس إطارا سلبيا يستقبل فقط بل هو فعال يبني العملية المعرفية أما الظواهريون فقد غلبوا كفة الشعور الذاتي للإدراك على العالم الخارجي وعوامله الموضوعية وهو ما يؤدي إلى العجز عن الحكم الموضوعي لإختلاف التجارب بين الذوات المدركة أي أنهم جعلوا العالم الخارجي تحت سيطرة الشعور ويتغير بتغيرهم وفي هذا إنكار للخصائص العالم الخارجي

التركيب : يذهب بعض علماء النفس إلى أنه يمكن الفصل بين عملية الإحساس و ظاهرة الإدراك من الناحية النظرية و المنهجية فمنهجيا نحس أولا ثم ندرك ثانيا أما من الناحية الواقعية العلمية فلا جدوى من التمييز بينهما خاصة و أن نتائج الأبحاث العلمية أثبتت صعوبة هذا الفصل فمن جهة الإحساس مسبوق بنشاط عقلي ضروري لتفسير المعطيات الحسية و من جهة أخرى لا يمكن للإدراك أن يصل إلى معرفة العالم الخارجي إلا من خلال المعطيات الحسية المكتسبة عن طريق الحواس

الرأي الشخصي : أعتقد شخصيا أنه لا يمكن تصور أن الإحساس لا يختلف عن الإدراك و حتى و إن كان الأول مرتبط بالثاني من ناحية أو أخرى يبقى الإحساس متميز عن الإدراك من حيث الفعالية و القيمة فما يقدمه العقل أدق و أوضح مما تقدمه الحواس وهذا ما عبر عنه جميل صليبا بقوله : ((**الإحساس غير الإدراك**))

الخاتمة (حل المشكلة) : نستنتج أن الإحساس باعتباره علاقة أولية بالعالم الخارجي و الإدراك بوصفه معرفة مجردة بهذا العالم إذ هما إلاّ تصوران فلسفيان تسبب في الفصل بينهما معطيات منهجية و مذهبية ليس أكثر لأن الواقع الحالي من خلال النتائج العلمية في علوم الحياة و الإنسان أثبتت إستحالة هذا الفصل فمن جهة الإحساس مسبوق بشيء من فعاليات العقل و من جهة أخرى الإدراك يتفاعل مع الإحساس قبل و أثناء و بعد الإتصال الأولي بالعالم الخارجي و هنا تكمن خصوصية المعرفة الحسية الإدراكية التي ينفرد بها الإنسان على باقي الكائنات الأخرى

dirassatidz.com
@dirassati1